بمناسبة انتصاف القرن العشرين:

حياة العلم بين منهجين

للاستاذ حامد حفني داود الجرجاوي

كان أرسطو الفيلسوف اليوناني أول من انتزع العلوم من الفلسفة . وهو وإن لم يخرجها عن إطارها القديم فقد نزل بها من عالم المثل الذي لا يحس إلى عالم الواقع . وهكذا أخرج أرسطو العلوم من دائرة الوهمية عند أفلاطون إلى دائرة الواقع المحس

رأى أرسطو أن العلوم على اختلافها قائمة على مجموعات من الأفكار وأن كل علم يشبه مجموعة خاصة من الأفكار ، يربط بين أجزائها وجوه شبه معينة . فهذه الأجزاء وأوجه الشبه وأوجه الاختلاف إلى ربط كل مجموعة في دائرة معينة فنشأت فكرة العلوم المختلفة التي أخذ يلخصها الواحدة تلو الأخرى من سديم الفلسفة الواسع وهيولا الأفكار . فلما تم له ذلك سمى هذه البديهيات التي اصطنعها في التفرقة بين علم وآخر « المنطق » أو المدخل إلى العلوم

. . .

وقد ظل منطق أرسطو مقياس العلماء في العصور الوسطى يكشفون بفضله عن مكنون العلوم ويربطون به بين الأفكار المتشابهة . وهم في ذلك يصدقون ما صدقه المنطق ويكذبون ما كذبه

ولم يحرم رجال الدين في هذه الآونة من اتخاذه في البرهنة على قضايا الدين والاستدلال على وحدانية الله ووجوده . وقالوا كل صنعة لا بد لها من صانع . والعالم صنعة ولا بد له من صانع أعظم وهو الله سبحانه وتعالى

. . .

وفي أوائل القرن السابع عشر تبدل وجه الفلسفة مسفراً عن فلسفة حديثة حمل مشعلها فرنسيس بيكون المتوفى سنة (١٦٢٦ م)

أبجد العلوم لحسن صديق خان عن حاشية المطالع) أن مترجمي المأمون أتوا بتراجم مخلوطة لا توافق ترجمة أحدهم ترجمة الآخر فبقيت تلك التراجم هكذا غير محررة بل أشرف أن عفت رسومها إلى زمن الحكيم الفارابي ثم إنه التمس منه ملك زمانه منصور بن نوح السامانى أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة فأجاب الفارابي وفعل كما أراد وسمى كتابه (التعليم الثاني)

فلذلك لقب (المعلم الثاني) . ثم يذكر حاجي خليفة أن هذا الكتاب ظل مسوداً بخط الفارابي في خزانة المنصور (أضاف إلى هذه العبارة كتاب أبجد العلوم الفقرة التالية — : إلى زمان السلطان مسعود من أحفاد المنصور وكان غير مخرج إلى البياض إذ الفارابي غير مدفت إلى جمع تصانيفه، وكان الغالب عليه السياحة على زي القلندرية . وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى (صوان الحكمة) وكان الشيخ أبو علي بن سينا وزيراً لمسعود وتقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة الكتب فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيها بينها التعليم الثاني ولخص منه كتاب (الشفاء) ثم إن الخزانة أصابتها آفة فاحترقت تلك الكتب فاتهم أبو علي بأنه أخذ من تلك الخزانة الحكمة ومصنفاته ثم أحرقها لئلا تنتشر ويطلع عليه) حتى اطلع عليه ابن سينا ولخص منه كتاب (الشفا) قال صاحب كشف الظنون ويفهم في كثير من مواضع الشفاء أنه تلخيص للتعليم الثاني [1] انتهى كلام حاجي خليفة . وقد عرضنا عليك الزيادة على الخبر التي وردت في أبجد العلوم. وعلى كل حال إذا صح ما ذكر ابن خلدون في مقدمته من أن أرسطو سمي بالمعلم الأول لأنه هذب وجمع ما تفرق من مباحث المنطق ومسائله فأقام بناءه متماسكا وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها [2] فإن ما قام به الفارابي من تأليف كتاب يجمع ويهذب ما ترجم قبله يجعله مشبها لأرسطو ولذلك سمي المعلم الثاني .

للكلام بقية

ضياء الرفيلي

---

١ — كشف الظنون لحاج خليفة وأبجد العلوم وحاشية المطالع ورسالة الأستاذ مصطفى عبد الرازق عن المعلم الثاني

٢ — مقدمة ابن خلدون

وأتباعه . وقد كان بيكون أشدهم ثورة على فلسفة أرسطو ، فالفكرة في نظر بيكون أيا كان نوعها لا تصدق إلا إذا برهنت له عليها واقتنع بصحتها . وجعل « التجربة » شرطا في التصديق (١)

وهكذا ضيق بيكون مجرى العلم بعد أن كان واسعاً لأن الكون مليء بالأفكار التي لم تخضع للتجربة ، ويتعسر إجراء التجربة على أكثرها . وسرعان ما اصطدم المذهب التجريبي الذي استنه بيكون بالأفكار الدينية . وهي أفكار نقلية عقيدية لا يجيز رجال الدين البحث فيها . كما أنها لا تجرب كما تجرب المواد الخام في المعمل . وكانت صدمة عنيفة صدم بها بيكون وصدم بها منهجه التجريبي الذي عجز عن تفسير قضايا الدين وأخفق إخفاقاً تاما في تناولها

إذاً لم يستطع مذهب بيكون أن ينهض للقيام بخدمة العلوم الدينية كما نهض بخدمة العلوم الطبيعية

وعند ذلك انبرى بعض الوسطاء من الفلاسفة ليوفقوا بين منهج أستاذهم بيكون وبين قضايا الدين التي استعصت على التجربة وكان توماس هوبز المتوفى سنة (١٦٧٩) أشدهم حماساً ، فاعتبر أن هناك شعبتين هما « المادة » و « الوحي » وذكر أن القوانين الطبيعية تصح عليها التجربة لأنها (مادة) وأن قضايا الدين وكل ما وصل إلينا بالنقل عن رجال الدين إنما هو (وحي) أو من قبيل الوحي ؛ ويجب تصديقه لأنه وحي ، ولكنه لم يعلل ذلك

وهكذا أخفق وسطاء بيكون كما أخفق بيكون لما في منهجهم من ضعف وضيق حال بينه وبين الاتساع لشمول المسائل الدينية النقلية ، فلم يستطع تفسيرها

وكان هذا الإخفاق سبباً في تشكك الفلاسفة . فمنهم من ترك فلسفة المادة والروح جانباً كجون لوك . ومنهم من أنكر المادة إسالة ليتقي شرها ويصدق بالوحي كما فعل : بركلي وهيوم

وأذكر أني ناقشت أستاذنا بود الأمريكي عام ١٩٤٥ م بمعهد التربية العالي للمعلمين ، في فكرة الأخلاق والتربية الدينية ، وكيف نوفق بين الأهداف الدينية والأهداف الدنيوية ، فكان مما أجاب به قوله: « إن الأخلاق نسبية لا مطلقة ، وإن الفلسفة تتعارض مع الدين . » . وهكذا أبى الفيلسوف التربوي إلا أن يعطيني صورة عن عجز الفلاسفة المعاصرين في مناهجهم

. . .

هذه حيرة ! ! !

فكيف نوفق بين قضايا المادة التي تخضع للتجربة . وقضايا الروح التي يعسر علينا إقامة التجربة عليها ؟

فكرت طويلا وقد هداني البحث إلى منهج يستطيع أن يحل مشاكل المادة والروح

وقد قلت : نعم . إن طبيعة « المادة » تخالف طبيعة « الروح » ونستطيع أن نصدق بمظاهر « المادة » بإقامة التجربة عليها في المعمل فنعرف ـ مثلا ـ تمدد المادن بالحرارة وتقلصها بالبرودة

ثم قلت : وحيث أن « الروح » والمسائل الدينية النقلية : كحساب القبر وسؤال منكر ونكير وغيرها لا تدخل تحت دائرة حسنا ولا يمكن وضعها في معملنا ـ أعتبرها صادقة مالم تقم التجربة يوماً ما ـ على إثبات ضدها ، وبمعنى أوضح : إن حساب القبر صحيح ما لم يثبت بالتجربة ضده

وهكذا نستغني عن إقامة التجربة على الأمور الروحية بقولنا للمنكر أو المكابر : أقم التجربة على ضدها أو أثبت ضدها

وهكذا تكون تجربة الأمور الروحية صحيحة بطريق عكسي يتفق مع طبيعتها . وحيث أن المنكرين للأمور الروحية والمسائل العقلية يعجزون عن إقامة التجربة على ضدها ، فإني أعتبر إنكارهم لها من قبيل إنكار الفروض العلمية . ومن أنكر الفروض العلمية فقد أنكر العلم كله . لأن الأصول الأولى للتجربة أيا كان نوعها هو الفرض الذي يسبق التجربة

. . .

هذا هو « المنهج العلمي الحديث » الذي وصفت ، واستطعت أن أوفق فيه بين قوانين « المادة » وقوانين « الوحي » حيث

---

١ — ومن هنا سمي مذهب بيكون بالمذهب التجريبي واعتبر رئيس المدرسة التجريبية .